الباب الثامن عشر

أدب الطلب

[لا يكن طلبك سببًا إلى العطاء منه ، فيقل فهمك عنه ، وليكن طلبك لإظهار العبودية ، وقيامًا بحقوق الربوبية] .

قلت : قد تقدم فى أول الكتاب أن الطلب كله معلول عند ذوى الألباب ، فإن كان ولابد من الطلب ، فليكن إظهارًا للعبودية ، وقيامًا بحقوق الربوبية ، فلا يكن طلبك من الحق سببًا إلى العطاء منه ، فيقل فهمك عنه : لأن الفهم عن الله يقتضى الاكتفاء بعلمه والاستغناء بمعرفته ، فلا يحتاج إلى شىء ، ولا يتوقف على شىء ، فإذا فقد من وجدك فلا يكن محط نظره إلا ما يبرز من عنصر القدرة ، ولا يشتهى إلا ما يقضيه عليه مولاه .

قيل لبعضهم : ماذا تشتهى ؟ قال : ما يقضى الله .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : لا يكن حظك من الدعاء الفرح بقضاء حاجتك ومن مناجاة محبوبك ، فتكون من المحجوبين .

وقال بعضهم : فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه وإلا فالرب يفعل ما يشاء .

وقيل إن سيدنا موسى عليه السلام قال : يارب أطعمنى فإنى جائع ، فأوحى الله إليه قد علمت ذلك ، قال يارب أطعمنى ، قال له : حتى أريد ، وهذا مقام أهل النهايات . وأما أهل البدايات فيرخص لهم فى طلب الحاجات ، وفى كثرة الدعاء والتضرعات ، فالدعاء فى حقهم واجب أو مندوب ، وفيهم ورد الترغيب فى الدعاء والإلحاح فيه . قال تعالى : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[1] وقال : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ)[2] .

---

(١) غافر : ٦٠ . (٢) النمل : ٦٢ .

وورد فى بعض الأخبار أن الله تعالى قال لسيدنا موسى عليه السلام : سلنى حتى ملح عجينك تشريعًا للضعفاء ، لأن الأنبياء عليهم السلام بعثوا معلمين للضعفاء والأقوياء .

وينبغى أن يتأدب فى الدعاء ، فلا يدعو بممنوع شرعًا ، ولا ممتنع عقلا ، ويكون بتلطف وانكسار ، وظهور فاقة واضطرار لا بانبساط وإدلال ، فإن ذلك مقام الرجل أهل المكانة والكمال ، ومن ذلك قول الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فى حزبه الكبير : وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك إلخ . وذكر فى قوت القلوب أن بنى إسرائيل قحطوا سبع سنين ، فخرج سيدنا موسى عليه السلام بسبعين ألفًا من بنى إسرائيل ليستسقى لهم ، فأوحى الله إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم ، وسرائرهم خبيثة ، فدعونى على غير يقين ، ويأمنون مكرى ؟ ارجع إليهم فإن عبدًا من عبادى يقال له برخ ، قل له يخرج حتى أستجيب له ، فسألهم عنه موسى فلم يعرفه أحد ، فبينما موسى عليه السلام يمشى فى طريق ، إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من السجود وقد عقد شملة على عاتقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله ، فسلم عليه وقال : ما اسمك ؟ قال برخ ، فقال له : منذ حين وأنا أطلبك ، اخرج فاستسق لنا ، فخرج فكان من خطابه لربه فى دعائه ومناجاته : ما هذا من فعالك ، وما هو من حكمك ، وما بذلك عُرِفت ، أنقصت عليك عيون مائك ؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك ، أم نفد ما عندك ، أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفارًا قبل خطأ الخطائين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعطية ، فتكون لما تأمر من المخالفين ، أم ترينا أنك ممتنع ، أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ قال : فمازال حتى اخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأنبت الله العشب فى نصف يوم حتى بلغ الراكب ، قال : فخرج برخ فاستقبله موسى عليه السلام وقال له : ما هذا الخطاب الذى خاطبت به الحق ؟ فأوحى الله إليه دعه فإن دعاءه يضحكنى . فانظر هذه الحكاية كيف وقعت على بساط المباسطة التى لا يفهمها إلا أهل المكانة والتمكين ، وحسب من لم يبلغ مقامات الرجال الأدب والهيبة مع رب العالمين .

الاكتفاء بتدبير الحق

ثم بين وجه ما ذكره من كون الدعاء إنما يكون عبودية لا سببًا فى العطاء فقال :

[كيف يكون طلبك اللاحق سببًا فى عطائه السابق ، جلّ حكم الأزل أن يضاف إلى العلل] .

قلت : العطاء السابق هو ما تعلق به علمه القديم قبل أن تظهر تجليات الأكوان ، ولا شك أن الله سبحانه قدر فى الأزل ما كان وما يكون إلى أبد الأبد ، فقد قسم الأرزاق الحسية والمعنوية وقدر الآجال . قال تعالى :

(إِنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[1] وقال تعالى : (وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)[2] وقال : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً)[3] وقال : (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ)[4] وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا)[5] .

فإذا علمت أيها الإنسان أن القضاء والقدر قد سبق برزقك وأجلك ، وأنه قد سبقت قسمتك وجودك ، فماذا تطلب ؟ وإذا طلبت فكيف يكون طلبك اللاحق سببًا فى عطائه السابق ؟ إذ قد سبق منه العطاء قبل أن يكون منك الطلب ، جلّ ، أى عظم وتعالى حكم الأزل القديم أن يضاف إلى العلل والأسباب الحادثة ، إذ محال أن يتقدم الحادث على القديم لا وجودًا ولا حكمًا .

قال ذو النون المصرى رضى الله عنه : التوحيد أن يعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا علاج ، وصنعه لها بلا مزاج ، وعلة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلى ولا فى الأرضين السفلى مدبِّر غير الله ، وكل ما يخطر ببالك فالله مخالف لذلك ، اهـ .

---

(١) القمر : ٤٩ . (٢) الرعد : ٨ . (٣) الأعراف : ٣٤

(٤) فاطر : ١١ . (٥) آل عمران : ١٤٥

قوله : وعلة كل شيء ، الضمير فى صنعه يعود على الحق تعالى ، أى وعلة كل شيء صنع الحق له ؛ يعنى أن سبب وجود الأشياء وظهورها هو صنع الحق لها . وصنع الحق لا علة له .

وقال بعضهم : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، أى باعتبار العلم والمشيئة لا باعتبار القدرة ، فالمراد بما كان القدر والقضاء السابق ، فما كونته القدرة وأظهرته لا يمكن أن يكون أبدع منه من حيث تعلق العلم القديم ، فلا يمكن تخلفه ، وإن كان العقل يجوّز أن يخلق الله تعالى أبدع منه ، والقدرة صالحة ، ولكن لما سبق به العلم ونفذ به القضاء لم يكن أبدع منه .

أو تقول : ليس فى عالم الإمكان أبدع مما كان ، فما ظهر فى عالم الإمكان وهو عالم الشهادة إلا ما كان فى عالم الغيب من المعانى القديمة ، ولم يظهر أبدع منه ، ولن يظهر أبدًا ، فافهم فالكلام صحيح على هذا الوجه ، والله تعالى أعلم .

ومما يدلك على أن طلبك ليس سببًا فى عطائه لك وجود عنايته بك قبل ظهورك الذى أشار إليه بقوله :

[عنايته فيك لا لشيء منك ، وأين كنت حين واجهتك عنايته ، وقابلتك رعايته ؟ لم يكن فى أزله إخلاص أعمال ، ولا وجود أحوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال ، ووجود النوال] .

قلت : مما تواترت به الأخبار والنقول ووافق المنقول المعقول ، أن ما شاء الله يكون وما لم يشأ ربنا لم يكن ، ومشيئته تعالى قديمة لأنها عين إرادته ، وإرادته على وفق علمه ، وعلمه قديم ، فكل ما يبرز فى عالم الشهادة فإنما هو ما قدره الحق فى عالم الغيب : « جَفَّتِ الأَقْلَامُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ » .

قال تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فى الأَرْضِ وَلاَ فى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا)[1] .

أى نظهرها ، فلا سعادة ولا شقاء إلا وقد سبق بهما القدر والقضاء ، السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه ، وقد تقدم قوله :

---

(١) سورة الحديد : ٢٢ .

ما من نفس تبديه إلا وله قدر فيك يمضيه .

فإذا علمت ذلك أيها الإنسان اكتفيت بعلمه السابق ، عن طلبك اللاحق ، وبقى طلبك عبودية ، وأدبًا مع الربوبية ، وإلا فعنايته فيك سابقة على وجودك لا لشيء منك تستحق به عنايته ومنته ، وأين كنت حين واجهتك عنايته فى أزله ، حين سبقت لك منه العناية وكتبك فى جملة أهل الرعاية والهداية ؟ ثم لما استنطقك يوم الميثاق أقررت بربوبيته ، وأين كنت حين قابلتك رعايته وحفظه ، وأنت فى ظلمة الأحشاء حين أجرى عليك رزقه من عرق الدم ، وحفظك فى ذلك المستودع حتى اشتدت أعضاؤك وقويت أركانك ؟ فأخرجك إلى رفقه ، وما يسر لك من رزقه ، لم يكن فى أزله حين واجهتك عنايته ، ولا فى مستودعك فى الرحم حين قابلتك رعايته ، إخلاص أعمال ولا وجود أحوال ، تستحق بهما وجود النوال ، بل لم يكن فى ذلك الوقت إلا محض الإفضال وعظيم النوال .

قال الواسطى رضى الله عنه : أقسام قسمت ، ونعوت أجريت ، كيف تستجلب بحركات أو تنال بمعاملات . وقال الشاعر :

فَلَا عَمَلٌ مِنِّى إِلَيْهِ اكْتَسَبْتُهُ
سِوَى مَحْضِ فَضْلٍ لَا بِشَىءٍ يُعَلَّلُ

وقال آخر :

وَكُنْتُ قَدِيمًا أَطْلُبُ الْوَصْلَ مِنْهُمْ
فَلَمَّا أَتَانِى الْعِلْمُ وَارْتَفَعَ الْجَهْلُ
عَلِمْتُ بِأَنَّ الْعَبْدَ لا طَلَبٌ لَهُ
فَإِنْ قَرُبُوا فَضْلٌ إِنْ بَعُدُوا عَدْلُ
وإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَصْفِهِمْ
وَإِنْ سَتَرُوا فَالسَّتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلُو

وقال آخر :

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ وَصْلَكَ يُشْتَرى
بِنَفَائِسِ الأَمْوَالِ وَالأَرْيَاحِ
وَظَنَنْتُ جَهْلاً أَنَّ حُبَّكَ هَيِّنٌ
تُفْنَى عَلَيْهِ كَرَائِمُ الأَرْوَاحِ
حَتَّى رَأَيْتُكَ تجْتَبِى وَتَخُصُّ مَنْ
تخْتَارُهُ بِلَطَائِفِ الإِمْنَاحِ
فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَا تُنَالُ بِحِيلَةٍ
فَلَوَيْتُ رَأْسِى تحت طَىِّ جَنَاحِى
وَجَعَلْتُ فى عُشِّ الْغَرَامِ إِقَامَتِى
فِيهِ غُدُوِّى دَائِمًا وَرَوَاحِى

ولهذا لم يلتفت قلب العارف لخوف ولا رجاء ، ولم يبق له فى نفس غير وجه الله حاجة .

فتحصل أن الولاية وهى سر العناية لا تنال بحيلة ولا تدرك بطلب ، لكن من سبقت له العناية يسِّر لما أريد منه .

قيل لذى النون : بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى اهـ .

وقيل لعلى كرم الله وجهه : هل عرفت الله بمحمد أو عرفت محمدًا بالله ؟ قال : لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكان محمد أوثق فىّ من الله ، ولكن الله عرفنى بنفسه فعرفت محمدًا ﷺ بالله ، وهنا انتهت معرفة العارفين ، أعنى حين تحققوا بسابق القدر غابوا عن أنفسهم فى وجود معروفهم ، فاستراحوا واستظلوا فى ظل الرضا والتسليم ، وهبّ عليهم من جنات المعارف نسيم ، لكن اختلفت أحوالهم فى حال نهايتهم :

* الماء وَاحِدٌ وَالزَّهْرُ أَلْوَانُ *

فمنهم من يغلب عليه الهيبة والحياء . قال بعضهم : من ازدادت معرفته بالله ازدادت هيبته له ، ومن كان بالله أعرف كان له أخوف ، وفيهم قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[1] .

ومنهم من يغلب عليه الشوق والاشتياق . وقال بعضهم : من عرف الله اتسم بالبقاء واشتاق إلى اللقاء وضاقت عليه الدنيا بحذافيرها .

وقال السرى : أجلّ مقام العارف الشوق ، يقول الله تبارك وتعالى : « إن لى عبادًا من عبادى ، أحبهم ويحبونى ، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلىّ ، وأذكرهم ويذكرونى ، وأنظر إليهم وينظرون إلىّ ، من سلك طريقهم أحببته ، ومن عدل عنهم مقته . قيل ياربنا وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة ، وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلىّ أقدامهم وافترشوا إلىّ وجوههم ، وناجونى بكلامى ، وتملقوا إلىّ بإنعامى ، فمن صارخ وباك ، ومن متأوه وشاك ؛ ومن قائم وقاعد ، ومن راكع وساجد ، بعينٍ ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشكون من حبى . أول ما أعطيهم ثلاثًا : أقذف فى قلوبهم من نورى ، فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات والأرض وما فيهن من موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة : أقبل عليهم بوجهى أترى من أقبلت عليه بوجهى يعلم أحد ما أريد أن أعطيه » اهـ

وقال إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه : غيبنى الشوق يومًا فقلت : يارب إن أعطيت أحدًا من المحبين ما تسكن به قلوبهم قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضرنى القلق ، فرأيت فى النوم كأنه أوقفنى بين يديه وقال : يا إبراهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك ما يسكن قلبك قبل لقائى ، وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت : يارب تهت فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى ما أقول فقال : قل اللهم رضنى بقضائك ، وصبرنى على بلائك ، وأوزعنى شكر نعمائك .

---

(١) فاطر : ٢٨ .

ومنهم من تغلب عليه السكينة فى القلب ، لأن العلم واليقين يوجبان السكون والطمأنينة فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته قال تعالى :

(أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[1] .

ومنهم من يغلب عليه الدهش والحيرة . قال بعضهم : أعرف الناس بالله أشدهم تحيرًا فيه . وفى الحديث : « اللَّهُمَّ زِدْنِي فِيكَ تَحَيُّرًا » .

ومنهم من يغلب عليه التواضع والخضوع والذل والانكسار . قال الجنيد : العارف كالأرض يطؤها البارّ والفاجر ، وكالسحاب يظل الأحمر والأبيض ، وكالمطر يسقى الماشى والراشى .

ومنهم من تتسع معرفته ويخوض بحار التوحيد ، فلا يكدره شىء ، ولا يسلط عليه شىء ، بل يأخذ النصيب من كل شىء ، ولا يؤخذ من نصيبه ، يأنس بكل شىء ، ولا يستوحش من شىء .

قال أبو تراب : العارف به يصفو كدر كل شىء ، ولا يكدره شىء اهـ :

وقال أبو سليمان الدارانى : إن الله يفتح للعارف على فراشه مالا يفتح له وهو قائم يصلى .

وقال بعضهم : العارف من أنس بذكر الله حتى استوحش من خلقه وافتقر إلى الله تبارك وتعالى ، فأغناه عن خلقه ، وذل إلى الله تبارك وتعالى فأعزه الله فى خلقه .

كلام الله لداود عليه السلام

وفى زبور داود عليه السلام : « ياداود بلغ أهل رضائى أنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ، وأنيس لمن أنس بذكرى ، وصاحب لمن صاحبنى ، ومختار لمن اختارنى ، ومطيع لمن أطاعنى ، بعزتى حلفت ما أحبنى عبد أعلم ذلك يقينًا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحببته أشد مما أحبنى ، ومن طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها ،

---

(١) الرعد : ٢٨ .

وهلموا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، وأنسوا بذكرى أؤنسكم بى ، وأسرعوا إلى محبتى أسرع إلى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبتى من طينة إبراهيم خليلى وموسى كليمى وعيسى روحى ومحمد صفيى ، وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ونعمتها بجلالى وجمالى » اهـ .

ولما كان الاعتماد على السابقة يقتضى ترك العمل بيّن سرّ ذلك بقوله :

[علم أن العباد يتشوفون إلى ظهور سر العناية فقال : يختص برحمته من يشاء ، وعلم أنه لو خلاهم وذلك لتركوا العمل اعتمادًا على الأزل ، فقال إن رحمة الله قريب من المحسنين] .

قلت : لما أخبر الله سبحانه فى كتبه على ألسنة رسله أن المدار إنما هو على السابقة فمن سبقت له العناية لا تضره الجناية ، تشوّق الخلق كلهم إلى ظهور سر هذه العناية فكل واحد يظن أنه من أهلها ، فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر إنما هو للبعض دون البعض ، فقال :

(يَخْتَصُّ برحمته مَنْ يَشَاء)[1] .

فأسندها إلى مشيئته دون مشيئتهم فعلموا أن ذلك إنما هو للبعض دون الكل ، لأن كل واحد يطمع أنه من ذلك البعض ، فربما يتركون العمل ، ويعتمدون على سابق الأزل فأخبرهم الحق تعالى أن ذلك السر له علامات تدل على من هو من أهله ومختص به ، فقال :

(إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[2] .

فالرحمة هنا هى العناية السابقة ، وهى قريبة من المحسنين الذين أحسنوا عبادة ربهم وأحسنوا إلى عباد ربهم .

فتحصل أن سر العناية إنما يظهر على المحسنين المتقنين لأعمالهم المخلصين فى عبودية ربهم ، فمن استند إلى الحكم السابق وترك العمل فهو مغرور أو مطرود لإبطاله الحكمة ومن استند إلى العمل دون النظر للقدرة والمشيئة السابقة فهو جاهل بعيد عن الحضرة غافل ، ومن جمع بينهما فهو محقق كامل ، وسر العناية

---

(١) آل عمران : ٧٤ . (٢) الأعراف : ٥٦ .

إليه إن شاء الله واصل .

قال أبو عثمان المغربى رضى الله عنه : قلوب العارفين فارغة لمفاجأة المقدور .

وقال بعضهم ليس كل من طلب نال ، ولا كل من نال وصل ، ولا كل من وصل أدرك ، ولا كل من أدرك وجد ، ولا كل من وجد سعد ، وكم من واحد حرم من المنى بمنى ، وكم من واحد أدرك من القربات غرفات ، ومن أيد بالتوفيق وصل فى لحظة العين إلى عين القبول ؛ كما حكى عن بعض الصالحين أنه رأى فى منامه إبليس اللعين ضج بالصياح والعويل ، فاجتمع عليه جنوده وقالوا : مالك ؟ فقال لهم : كنت أطمع فى فلان منذ سنين ، فإذا به قد استوى ظاهره وباطنه وسره وعلانيته فلم أجد إليه سبيلا ، تحلى بالصدق فامتنع منى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر اهـ .

ثم بين ما تقدم من حكم المشيئة فقال :

[إلى المشيئة يستند كل شىء وليست تستند هى إلى شىء] .

قلت : المشيئة والإرادة شىء واحد وإليهما تستند الأشياء كلها . قال تعالى : (وَمَا تَشَاءون إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله)[1] ، (ولَوْ شَاءَ رَبُّك مَا فَعَلُوهُ)[2] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سبق المشيئة لكل شىء . وأما هى فلا تستند إلى شىء ولا تتوقف على شىء ، فلا تتوقف على سؤال ولا على طلب ، فما شاء الله كان من غير سبب ولا سؤال ، وما لم يشأ ربنا لم يكن ، قرّب من شاء بلا عمل ، وبعّد من شاء بلا سبب :

(لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)[3] .

فقاعدة التحقيق ما هى إلا سابقة التوفيق .

قال أبو بكر الواسطى رضى الله عنه : إن الله لايقرّب فقيرًا لأجل فقره ، ولا يبعد غنيًّا لأجل غناه ، وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يوصل وبها يقطع ، ولو بذلت الدنيا والآخرة ما أوصلك إليه بها ، ولو أخذتها كلها

---

(١) الإنسان : ٣٠ . (٢) الأنعام : ١١٢ . (٣) الأنبياء : ٢٣ .

ما قطعك بها ، قرب من شاء بغير علة ، وقطع من شاء من غير علة ، كما قال تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)[1] .

فالنظر إلى المشيئة حقيقة ، والنظر إلى السبب شريعة .

أو تقول : النظر إلى المشيئة قدرة ، والنظر إلى الأسباب حكمة ، ولابد من الجمع بينهما ، فالحقيقة معيِّنة ، والشريعة مبيِّنة ، الشريعة حكمة ، والحقيقة قدرة ، والحقيقة حاكمة على الشريعة فى الباطن ، والشريعة حاكمة على الحقيقة فى الظاهر ، وليس حكم القدرة بأولى من وصف الحكمة فى محله ولا بالعكس .

الناس والحقيقة والشريعة

قال الشطبى : واعلم أن الناس أربعة : ناظر فى السوابق لعلمه بأن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد . وناظر فى العواقب لعلمه بأن الأعمال بخواتمها . وناظر للوقت ، لا يشتغل بالسوابق ولا بالعواقب غير أداء ما كلف به من حكم الوقت ، عالم بأن العارف ابن وقته ، لا يهتم بماض ولا مستقبل ، ولا يرى غير الوقت الذى هو فيه وناظر لله وحده لعلمه بأن الماضى والمستقبل والحال متقلبون فى قبضته متصرفون فى حكمه ، والأوقات كلها قابلة للتغير وتبديل الحال فلا يراها ، وإنما يراقب من كل شىء بيده .

وقد أراد بعضهم الخروج من بين يدى بعض المشايخ ، فقال له الشيخ أين تريد ؟ فقال : يا سيدى لئلا أشغلك عن وقتك ، فقال له ليس عند الله وقت ولا مقت ، إنما نرى رب الوقت لا الوقت ، ومن تمكنت فيه حالة الشهود غاب بالموجد عن الوجود : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ)[2] .

حكى أن رجلا قال لأبى يزيد : أين أبو يزيد ؟ فقال له : ليس هنا أبو يزيد .

وقال رجل للشبلى : أين الشبلى ؟ قال : مات لا رحمه الله ، إنما عنى الشبلى

---

(١) النور : ٤٠ .

(٢) الكهف : ١٨ .

لارده الله لإحساسه عن مشاهدته لربه .

ورأى أبو يزيد رجلا فى المسجد يسأل عنه ، فقال له : وأنا أطلبه منذ سنين فظن أنه مجنون فلما أعلم أنه هو قال له يا سيدى عليك أسأل ولك أطلب ، فقال له أبو يزيد : الذى تطلب قد ذهب فى الله بالله للهِ فلا رده الله . هذا آخر الباب الثامن عشر .

وحاصلها :آداب السؤال والطلب ، وأنه ينبغى أن يكون عبودية لاسببًا فى العطاء ، إذ قد سبقت قسمتك فى الأزل قبل أن يكون منك طلب فعنايته سابقة : (يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) .

لكن الحكمة تقتضى وجود العمل ، فوجود العمل أمارة على خصوصية الأزل مع توقف ذلك على المشيئة ، لأنها يستند إليها كل شىء ولا تستند هى لشىء ، فلزم السكون والأدب حتى فى ترك الطلب كما بين ذلك فى أول الباب التاسع عشر بقوله رضى الله عنه :